منهجُ الأنبياءِ في تحقيق ركائز الأمنِ الفِكريِّ
نَبيُّ اللّهِ إبراهيمُ (عليه السلام) أنموذجاً

◆ **الشيخ د. عبد القادر ترنني**[1]

■ **خلاصة**

يُعتبرُ تحقيقُ الأمنِ من أهمِّ ما تَطمحُ إليه المجتمعاتُ الإنسانيّةُ؛ لأنَّه السَّبيلُ لاستقرارها وتقدُّمِها وازدهارِها في جميع مجالاتِ الحياة.. في هذا البحثِ نُسلِّط الضَّوءَ على المَنهج الإسلاميِّ الذي رفعَ لواءَه أبو الأنبياء (إبراهيمُ) (عليه السلام)، لتَحقيق أمنٍ رساليٍّ حقيقيٍّ، حملَه معَ كلِّ حجرٍ رفعَ به بنيانَ الكعبةِ المُشرَّفة، راجيًا ربَّه أن يَعمَّ الأمنُ الظّاهرُ والباطنُ أرجاءَ المَعمورة، من خلال الاعتقادِ الصَّحيح، وتقويم الفكر الإنسانيِّ باتِّجاه التَّوحيدِ والعُبوديّةِ التّامّةِ لله – عزَّ وجلَّ- الذي يُفضي إلى أمنٍ فكريٍّ وعقديٍّ إنسانيٍّ، تتحقَّقُ معَه جميعُ أهدافِ الرِّسالاتِ السَّماويّةِ في الأرض..

الكلمات المفتاحية: الأمن الفكري - (إبراهيم) (عليه السلام) - الدَّعوة - الكعبة المشرَّفة - منهج الأنبياء.

١ - أستاذ دكتور في الجامعة اللبنانية، قسم اللغة العربية وآدابها، ومؤسس جمعية الأثر الطيب الثقافية الاجتماعية- لبنان.

المقدمة

للأمن في القرآن الكريم حقلٌ دِلاليٌّ واسعٌ، ذو علاقة بالحياة الدنيويَّة والأخرويَّة على حدٍّ سواء؛ ذلك أنَّ الإسلامَ دينٌ يَدعو الإنسانَ إلى بناء الدُّنيا والآخرة؛ حيثُ جعَلَ الدُّنيا مزرعةً يَغْرِسُ العبدُ فيها البُذورَ التي يَجني ثمارَها في الآخرة؛ ومن أهمِّ البُذور، التي يُمكنُ أن يكون غرسُها وبَذْرها وثمَرُها طيِّبًا عَظيمًا، إنَّما هو الأمنُ الذي يُسيِّجُ العقولَ والنُّفوسَ والمجتمعاتِ بسياجٍ يَكفُلُ لها العيشَ الكريمَ، ويُحافِظُ على وجودِها وتقدُّمِها ورُقيِّها وصَفائِها...

وإذا رجعْنا إلى كتاب الله نَستنطقُه ونسألُه عن سبب إرسال الرُّسلِ، والهدف من بعثة الأنبياء والمُرسلينَ، فإنَّنا سنجدُ أنَّ هدايةَ النّاسِ إلى الإسلام هي الهدفُ الأسمى من الرِّسالات جميعها؛ إذ الاستسلامُ لله -تعالى- خالق الخَلق ومُشرِّع الشَّرائع الضّامنة للحقوق وللأمن الفرديِّ والمُجتمعيِّ والإنسانيِّ والعالميِّ فكريًّا وسياسيًّا وعقدَيًّا وخُلُقيًّا واقتصاديًّا... هذا الاستسلامُ هو الضَّمانةُ الحقيقيّةُ لبلوغ كلِّ الأهداف النَّبيلة التي تكفلُ حمايةَ البشرِ من الضَّياعِ والانحرافِ والاستغلالِ الذي تُمارِسُه القوى الظّالمةُ في الأرض..

ولئنْ حاوَلنا تحديدَ أهمِّ المجالاتِ، التي عملَت كلُّ الرِّسالاتِ على تَحصينها أمنيًّا، فإنَّ النصَّ المعصومَ سيُنَبِّهُنا إلى أنَّ الأمنَ الذي عملَ الإسلامُ على تهيئته طالَما ركَّزَ على أمنِ البلاد الذي يتحقَّقُ بالأمن المكانيِّ والوجوديِّ والخُلُقيّ والتَّواصُليِّ على كلِّ صعيد بدءًا من العلاقاتِ الأُسَريَّة وانتهاءً بالعلاقاتِ الاجتماعيّة، سواءٌ أكانتْ أساليبُها قديمةً كقصائد الشُّعراء والأخبار والأنباء التي كانَت الألسنُ تتناقلُها وتَسيرُ بها الرُّكبانُ.. أم مُستحدثةً كتلك التي تتناقلُها الفَضائيّاتُ والوسائلُ الإعلاميّةُ ووسائلُ التَّواصلِ الاجتماعيِّ، التي تَكفلُ الأمنَ الخُلُقيّ والمعلوماتيَّ والعَقديَّ والالتزامَ

الفرديَّ والمجتمعيَّ الذي يُعَدُّ البيئةَ الحاضنةَ للأمنِ الفكريِّ متى كانَت محلَّ عنايةٍ ومراقبةٍ واهتمامٍ من قِبَلِ المَعنيِّينَ بهذا الجانب الخَطيرِ.

الأمنُ الفِكريُّ - إذنْ - لا بدَّ له من مَحطّاتٍ تُحيطُ به من كلِّ جانبٍ، وتَرْفُدُه بأسباب وقُوًى تُساعدُ على تحصين الإنسانِ وعقله، وما لم يَعمدِ المَسؤولونَ والدُّعاةُ إلى الاهتمامِ بجانب الحصانةِ الفكريّةِ، وما لم يَعملِ العلماءُ والنُّقادُ والمُصلحونُ على بناء المَحطّاتِ الرَّئيسةِ الحَصينةِ وتَهيئةِ أسبابها، ذهبَت الجهودُ سُدًى، لا بل انقلبَت رأسًا على عَقب إلى أن تنهارَ في قَبضةِ المجرمينَ، الذينَ يُخَطِّطونَ لهدمِ الإنسانِ فكريًّا ودينيًّا وقِيَميًّا.

من هذا المنطلقِ جاء هذا البحثُ المكوَّنُ من أربعةِ محاورَ وخاتمةٍ:

أولا: الهدفُ من بعثة الأنبياءِ والرُّسلِ في دعوة (إبراهيمَ) عليه السلام ووصيّته

إذا كان اللهُ -سبحانَه- قد أرسلَ الرُّسلَ للعبادِ كي يَهدوهُم ويُرشِدُوهُم إلى طريق رِضوانه، فإنَّ سائلاً يَسألُ: ما الهدفُ الذي أرادَ الله -تعالى- للخلق الوُصولَ إليه من خلال الرِّسالاتِ السَّماويةِ والأنبياءِ والمُرسَلينَ الذينَ انْتجَبَهُم وبعثهم للنّاسِ، فأنزلَ عليهم كتبًا وشرعَ لهم شرائعَ مُتعدِّدةً؟

يُخبرُنا اللهُ -سبحانه- عن الهدف المُشترك الجامع من بعثة الرُّسُلِ عمومًا، مُخبراً عن ملَّة نبيِّه (إبراهيمَ) أبي الأنبياء بقوله: ﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة:١٣٠].

هذه الآيةُ الشَّريفةُ وما بعدَها من آياتٍ تُعلنُ أنَّ الإسلامَ هو الهدفُ الأوَّلُ والأخيرُ من بعثةِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ إذ كانَت وصيّةُ (إبراهيمَ) لأبنائه، من بعده، الثَّباتَ على الإسلام والموتَ عليه، وبهذه الوصيّة التزمَ أبناؤُه من بعده ووَصَّوا بها أبناءَهم: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ**

يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٣].

فلمَ الإسلامُ لا غيرُه؟

الإسلامُ هو الدِّينُ الجامعُ الذي ابتعثَ اللهُ -تعالى- به أنبياءَه، بهدف حفظ الإنسان في نفسه وماله وعِرضه وعَقله ودينه، فهو الدِّينُ الذي عُني بالفكر قويمًا من أيِّ زلّة أو انحرافات من المُمكن أن تَستوليَ عليه فتَستغلَّه وتُصيِّرَه عبدًا مُستسلمًا للجَهلِ والرَّذيلةِ والعَصبيّةِ والظُّلمِ والقوى المُتجبِّرةِ والشَّهواتِ والنَّزوات..

إنَّه الحصنُ الحصينُ والملاذُ المكينُ الذي يَضمنُ سعادةَ البشرِ، ويُحقِّقُ العدالةَ بينَهم، ويَقضي على كلِّ وجهٍ من أوجُه الاستغباءِ والاستخفافِ بالعُقولِ والنُّفوس، والذي يُحوِّلُ المجتمعاتِ البشريّةَ إلى وقودٍ للعقائدِ والأفكارِ الهَدّامةِ ذاتِ العَناوينِ البرّاقةِ الجَذّابةِ القادرةِ على التَّلاعُبِ بعواطفِ البشرِ، واستمالتِهم نحوَ مُستنقعاتِ الضَّياعِ والدَّمارِ والخُسرانِ المُبينِ، وذلك باسم الدِّفاعِ عن حقوقِ الإنسانِ وحريّته، والمساواةِ بينَ الرَّجلِ والمرأة، وتمَكينِ النِّساءِ، وحقِّ الطِّفلِ، والرِّفقِ بالحَيوان... ولا تَنتهي الشِّعاراتُ والعَناوينُ المُجلجلةُ التي ثبتَ أنَّ واضعيها كانوا يَصرفونَ أبناءَ المجتمعاتِ عن حقوقِهم، ليَشغلوا الأمّةَ كلَّ الأمّةِ عن قضاياها المَصيريّة، فيتمكَّنوا من السَّيطرةِ على مُقدّراتِها وخيراتِها واستعبادِ أهلِها بأكاذيبَ وشعاراتٍ ساريةِ المَفعولِ حتّى وهم يَقتلونَ شعبًا بلا شفقةٍ ولا رَحمة..

الإسلامُ هو الدِّينُ الذي أرسلَ الله به خاتمَ أنبيائه ورُسله رحمةً وهدايةً، ليُقوِّمَ مسيرةَ البشريّة التي انحرفَت عن طريق الله تعالى وصراطه المُستقيم؛ قال -تعالى-: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧ - ١٠٨].

وبما أنَّ الإسلامَ هو العنوانُ والمَضمونُ والفكرُ والأساسُ الذي دَعا إليه أنبياءُ الله -تعالى-، مُتحمِّلينَ من أجله العَذابات، ومُتَحَدِّينَ الخطوبَ والمِحَنَ وقُوى الشَّرِّ وملوكَ الضَّلال، حتى قُتل من قُتِلَ منهم لأجلِه، فإنَّ كلَّ العناوينِ الفرعيّةِ التي دَعا إليها المنحرفونَ عن الخطِّ الإلهيِّ

والمُتستِّرونَ بأنبياءِ الله -تعالى- – اسمًا ومنهاجًا - لا علاقةَ لها بالمَنهجِ الإلهيِّ ولا بالرِّسالاتِ السَّماويّةِ تحتَ أيِّ شعارٍ كانَت، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٦].

إنَّ الحركاتِ المُنحرفةَ عبرَ التّاريخِ إلى يَومِنا هذا، والتي تتلفَّعُ بالعناوينِ والأقنعةِ الإصلاحيّةِ، لا قيمةَ لها ولا علاقةَ لها بالخطِّ القويمِ وبالدِّينِ الحقِّ الجامعِ لكلِّ الحركاتِ الدَّعويّةِ الرِّساليّةِ الإلهيّةِ عبرَ العصورِ؛ وكم تُطالعُنا اليومَ هذه الحركاتُ المُنحرفةُ بأسماءَ مُستحدَثةٍ تَهدفُ إلى ضربِ الفكرِ في الصَّميمِ، والقضاءِ على المنهجِ الإلهيِّ بمناهجَ شيطانيّةٍ تَرفعُ أسماءَ الأنبياءِ وتَستغلُّها في حركةٍ بهلوانيّةٍ تُصرَفُ عليها الأموالُ الطّائلةُ التي تتفنَّنُ في شراءِ الدُّولِ والحُكّامِ والسّاسةِ والمَسؤولينَ والإعلامِ والذِّمَمِ والعَمائمِ والشَّخصياتِ... لتُحاربَ كلَّ مَن يقفُ في وجهِ هذا المشروعِ الجهنَّميِّ الإبليسيِّ، القائمِ على الفسادِ والانحرافِ والخنوعِ والرَّذيلةِ والإجرامِ والقَتلِ والإبادةِ الجماعيّةِ والتَّطهيرِ العرقيِّ لكلِّ مَن يتصدَّى لهذا المشروعِ السّاقطِ، ولو كان شعبًا أو أمّةً...

ويُؤكِّدُ القرآنُ هذه الحقيقةَ التي يَعمد المنحرفونَ إلى تَزويرِها عبرَ العصورِ والدُّهورِ، فاتحًا كلَّ الكتبِ والدَّفاترِ التي تَخطُّ مناهجَ الضَّلالِ من قَبلِ أن تَبدأَ مراحلُ جديدةٌ من التَّغييرِ المُمَنْهَجِ والتَّزويرِ الفاضحِ، ليُعْلِنَ للأجيالِ قاطبةً أنَّ التلطّي خلفَ أسماءِ الأنبياءِ لا يَزيدُ هؤلاءِ الضّالِّينَ إلا ضَلالًا وكفرًا وانحرافًا: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٦٧ - ٦٨].

فمَن دَعا إلى اليهوديّةِ أو النَّصرانيّةِ، التي تَنغلقُ على نفسِها، وتَدعو إلى قتلِ مَن يَختلفُ معَ مُستجدَّاتِها المُخترعةِ وزياداتِها المُبتدَعةِ التي سطَّرَها المُتاجرونَ باسمِ الأنبياءِ، ثم تَنسفُ الحقائقَ التي جاءَ بها (مُوسى كليمُ اللهِ) وكلُّ أنبياءِ بَني إسرائيلَ الذينَ سَبقوهُ أو الذينَ جاؤُوا بعدَه، لتحاربَ (النبيَّ الخاتمَ) بُشرى المُرسَلينَ ورحمةَ اللهِ -تعالى- للعالمينَ، فليسَ بتابعٍ لـ(مُوسى) ولا مُؤمنًا

بـ(عيسى)، كما أنَّه بَريءٌ من توراة (مُوسى) وإنجيلِ (عيسى)؛ فكيفَ بمَن نسفَ كلَّ القِيَمِ والمَبادئِ والأخلاق والأعرافِ والإنسانيّةِ والإيمانِ والرِّسالاتِ، ثم دَعا إلى دينٍ إبراهيميٍّ جديدٍ مُخترَعٍ، هو خليطٌ من قذاراتِ المُنحرفينَ، والقَتَلةِ والمُجرمينَ، ومُبيدي الشُّعوبِ، ومُحتلِّي الأوطانِ، ومُرتكبي أبشعِ المَجازرِ في تاريخ البشريّةِ، وصانعي آلاتِ القتلِ والدَّمارِ، وناشري المُجونِ والفسادِ والانحلالِ، ممَّن يُهيمنُونَ على العالَمِ ومُقدَّراته، ويَتحكَّمونَ بدُوَلِه وحكوماتِها واقتصاداتِها ومناهجِها التَّربويّةِ والتَّعليميّةِ والسِّياسيّةِ والإعلاميّة...؟!

ولئلاّ يَنجرفَ المسلمونَ الملتزمونَ بمنهاجِ أنبياءِ الله -تعالى- خلفَ أيِّ شعارٍ من الشِّعاراتِ المُضلّة، تحتَ أيِّ ظرفٍ من الظُّروف، ولأيِّ سببٍ من الأسباب، أمرَ الله -تعالى- نبيَّه بالإعلانِ عن المنهجِ الجامعِ لكلِّ الأنبياءِ والرِّسالات فقال: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣].

إنَّ المتأمِّل في هذا البيانِ والتِّبيانِ يَعرف يَقينًا أنَّ القرآنَ أراد إقامةَ الحجّةِ على العبادِ جميعِهم: علماءَ وعامّةٍ وحُكامٍ ومَحكومينَ...، فإذا التزموا بالخطِّ الإلهيِّ كانوا مسلمينَ، وإن لم يَفعلوا كانوا على النَّقيضِ من الإسلامِ والحقِّ والهداية... فالإسلامُ هو جوهرُ الملّةِ الإبراهيميّة، وكلِّ الرِّسالاتِ التي بَعث الله -تعالى- بها رسلَه قبلَ (إبراهيمَ) وبعدَه؛ إذ دعَت إلى هذا الجَوهرِ.

وبما أنَّ الإسلامَ هو الهدفُ الأساسُ، وهو الضّامنُ للأمنِ بكلِّ عناوينه... لذا كان لا بدَّ من إقامة بنيانٍ وتَعبيدِ طريقٍ لهذا البنيانِ يكونُ مؤشِّرًا على الطَّريقةِ الواجبِ اتباعُها والتَّضحيةُ من أجلها، وهنا لا بدَّ من الإضاءة على المَحطّاتِ المُتدرِّجةِ التي أرشدَ القرآنُ إلى أهمِّيتِها في تحقيق الأمنِ الفكريِّ في الأ

ثانيا: الكعبةُ المُشرَّفةُ مَظهرُ الأمنِ المكانيِّ ومُستلزماته

يَذكر اللهُ -تعالى- في كتابه قصّةَ (إبراهيمَ) عليه السلام مع بناءِ الكعبةِ التي عفَت آثارُها بعد طوفانِ (نوحٍ)

ﷺ، مُسلِّطًا الأضواءَ على محطاتٍ وعبرَ تَستوقفُ المُتدبِّرينَ والمُتأمِّلينَ وتُحدِّدُ مُستلزماتِ الأمن الفكريِّ بوضوحٍ وجلاءٍ لا نظيرَ له، نُلخِّصُها بما يأتي:

أ - نبيُّ الله (إبراهيمُ) وقيادةُ الفكرِ الآمنِ

لماذا يُعرِّجُ القرآنُ إلى مسألة الاختبارِ لقادةِ الفكرِ بالرَّغمِ من أنَّهم أنبياءُ ومُرسَلونَ من قبلِ الحديثِ عن كيفيّةِ بناءِ مُجتمعاتٍ آمنةٍ؟

لعلَّ القصّةَ تَبدأُ باختبار الله -تعالى- نَبيَّهُ (إبراهيمَ) مُرشِدًا الخلقَ إلى أنَّ نجاحَ قادةِ الفكرِ النَّيِّرِ في المجتمعاتِ الإنسانيّةِ لا بدَّ من تعرُّضه لهزّاتٍ وامتحاناتٍ واختباراتٍ من قَبْل التصدِّي للمُهمّةِ التي تُوكَلُ إليهم؛ وما ذاكَ إلا لأنَّ الفكرَ من أخطر القَضايا التي تَحملُها البشريّةُ في مراحلِها كافةً، فبالفكرِ صَلاحُ العقولِ أو فسادُها، وبصلاحِها صلاحُ الفردِ والمُجتمعاتِ والبلدان، وبفسادِها فسادُها، وبانهيارِه انهيارُها، وبدَمارِه دمارُها... ومن أجل ذلك كان أمرُ الله -تعالى- أنَّ الذي يَخصُّهُ الحقُّ بالإمامةِ والقيادةِ الإلهيّةِ، التي تُصلِحُ المجتمعاتِ، لا بدَّ من أن يكونَ أهلاً للمَسؤوليّةِ، لا يَضعفُ أمامَ المَصاعبِ، ولا تُوقِفُه العَوائقُ، ولا تُزعزِعُه الحوادثُ، ولا تُخيفُه قُوى الظُّلمِ واجتماعُها عليه، فلو أنَّ إنسانًا مُنحرفًا كان من ذرّيةِ (إبراهيمَ) والأنبياءِ من بعده فإنَّه لا يَصلحُ للإمامةِ الإلهيّةِ طالما انغمسَ في الظُّلمِ والابتعادِ عن الخطِّ القَويمِ؛ تُلخِّصُ آيةُ الابتلاءِ هذه المَعانيَ بلمحةٍ تُعدُّ من أروعِ اللَّمحاتِ المُوجِّهةِ نحوَ الاستقامةِ والمَعرِّفةِ بصفاتِ القائدِ الذي يُلائمُ المَراحلَ جميعَها؛ قال -تعالى-: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤].

لقد امتحنَ اللهُ -تعالى- (إبراهيمَ) واختبرَهُ في أعقدِ الأمورِ وأدقِّها، فلم يكنْ إلا مثالَ العبدِ والوالدِ والزَّوجِ والمُوجِّهِ والدّاعيةِ والقائدِ والرَّسولِ الثابتِ على الفكرِ الذي اختطَّتْه السَّماءُ لأهلِ الأرض، ومَن يتتبَّعْ سيرتَه المُباركةَ سيَكتشفُ جُملةً من الصِّعابِ التي لا تَثبتُ أمامَها الجبالُ الرّاسياتُ، حيثُ امتُحن بها (إبراهيمُ) ﷺ، فثَبتَ من دون أن يَرِفَّ له جَفنٌ أو تَهتزَّ له عزيمةٌ، وما أعجبَ تَحدِّيَه

لشياطينِ الإنسِ والجنِّ منذُ نشأته، وصمودَه الكبيرَ في قلب النِّيران، هذا الصُّمودُ الذي أثارَ إعجابَ نمرودَ الطّاغيةِ نفسِه؛ حيث راح يُردِّدُ دونَ وعي: «مَنِ اتَّخَذَ إِلهًا فَلْيَتَّخِذْ إِلهاً مِثْلَ إِلهِ إِبْرَاهِيمَ»[1].

ب - جهودُ (إبراهيمَ) عليه السلام في بناء البيتِ الآمنِ وحقيقةُ التوجُّه إليه

البيتُ رمزٌ للمكان الأوَّلِ الذي اختارَه اللهُ -تعالى- ليكون الأنموذجَ الأسمى الذي يَحتذيه الخلقُ في كلِّ مكان يَرحلونَ إليه، والأعظَمُ من ذلك أنَّه نَسَبَه إلى نفسه نسبةَ تعظيم، فجعلَه مَوطنًا مُقدَّسًا في كلِّ أبعادِه الرُّوحيّة والدِّينيّة والعَقديّة والدُّنيويّة والأُخرويّة، وكلَّما اقتربَت الأمكنةُ من طبيعة هذا البيتِ طهارةً ونقاءً - متى ارتحلَ الإنسانُ إليها حاملاً معَه روحيّةَ البيتِ العَتيق - كانَت المثالَ الذي يُحتذى والأرضيّةَ الصّالحةَ لبناء مُجتمعاتٍ نقيّةٍ فكرًا وصَلاحًا، قادرةٍ على الإصلاحِ وخَوضِ مَعاركه التي لا تَنتهي إلا بانتهاءِ الحياةِ وقيامِ السّاعة؛ قال -تعالى-: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [الحج: ٢٦].

ونلحظُ أنَّ القرآنَ حدَّدَ الكعبةَ لتكونَ المَعلَمَ الأوحَدَ الذي تتَّجهُ إليه الأفئدةُ من كلِّ أصقاعِ الأرضِ؛ فمِن قوله "بوَّأنا"؛ "أي: أظهَرْنا وحدَّدْنا المكانَ، وهو الذي سيَبني فيه سيِّدُنا إبراهيمُ بالأحجارِ ليُبرِزَ البيتَ؛ فالبيتُ - إذنْ - كان مَوجودًا من قَبلُ"[2].

وإذا كان اللهُ قد بَوَّأَ لـ(إبراهيمَ) مكانَ البيتِ، أي: جعلَه مَباءةً ومَرجعًا له، يَرجعُ إليه ويَقصدُه... فإنَّ تَبوئتَه -تعالى- مكانَ البيتِ لـ(إبراهيمَ) عليه السلام هي جَعْلُ مكانه مَباءَةً ومَرْجعًا لعبادته، لا لأنْ يتَّخذَه بيتَ سُكْنى يَسْكُنُ فيه[3]، وإنمَّا هو سُكْنى للقلوبِ الطّاهرةِ وائتلافِها وتَلاقيها وتَعارُفِها وتَوادِّها، كما أنَّه المكانُ الذي سدَّدَ إليه نبيَّهُ ليَجمَعَ البشرَ على توحيد الله -تعالى- الخالقِ الحقِّ وعدمِ الإشراكِ معَه أحدًا غيرَه؛ ولذا قيلَ في معنى بَوَّأَ: بوَّأْتُهُ مَنزلاً، إذا أسكنتُهُ إيّاهُ؛ وبَوَّأْتُ الرُّمحَ نحوَه، إذا سَدَّدْتُهُ نحوَه[4].

١ - نَاصِر مَكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، ج١ ص٣٨٧.
٢ - محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي خواطر، ج٨ ص٤٩٣٨.
٣ - محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٤ ص٣٦٤.
٤ - أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة؛ مادة (بوأ).

وكما أنَّ المؤمنينَ جميعَهم أينَما كانوا يتَّجهونَ في صَلواتِهم يوميًّا إلى جهةِ الكعبةِ فإنَّ "المساجدَ المُنتشرةَ في الأرضِ لا بدَّ أن يكونَ لها مُتَّجَهٌ واحدٌ، لإلهٍ واحدٍ، لذا حدَّدَ الحقُّ هذا المكانَ بالقِبلةِ إلى الكَعبة" [1].

بهذه الطَّريقةِ تَجتمعُ الأجسادُ في بيتِ الله -تعالى- حولَ كعبتِه التي ارتضاها مَعْلَمًا يَجمعُ النّاسَ على اختلافِ بيئاتِهم، ومَوطِنًا مُطهَّرًا يَصهرُهُم في بَوتقةٍ نقيّةٍ تصقلُ عقولَهم وقلوبَهم ونفوسَهم، وتَجلو عن أفكارِهم كلَّ صَدأٍ؛ وكما تَجتمعُ أجسادُهُم عن قربٍ، كذا فإنَّ أرواحَهُم تَجتمعُ مَهما كانوا بَعيدينَ بحيثُ يكونونَ جسدًا واحدًا يتأثَّرُ كلُّه بما يُصيبُ بعضَه مصداقًا لقول (النبيِّ الأكرم) ﷺ «مَثَلُ المُؤمنينَ في تَوادِّهم، وتَراحُمِهم، وتَعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشتَكى مِنهُ عُضوٌ تَداعَى لَهُ سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»[2] .

هذه الحكمةُ الإلهيّةُ من اختيار مكّةَ المُعظَّمةَ، وتوجُّه البشرِ إلى كعبتِها على مَدارِ اليومِ والنَّهارِ، لا تُؤتي ثمارَها إذا لم يتحرَّكِ المؤمنونَ في كلِّ بقعةٍ من بقاعِ المَعمورةِ لأجلِ إخوانِهم متى تعرَّضوا لظُلمٍ أو لعدوانٍ، فإذا تعرَّضَ وطنٌ من أوطانِ المُسلمينَ وبُقعةٌ من بقاعِه لاحتلالٍ وعدوانٍ وظُلمٍ وقَتلٍ، ثم لم يتحرَّكِ المؤمنونَ الذين يُشاركونَ إخوانَهم قِبلتَهم وكعبتَهم، فإنَّ الغايةَ من التوجُّه إلى الكعبةِ المُشرَّفةِ سيَكونُ مَفقودًا أو مُنعدمًا، لذا تَحتَّمَ على المؤمنينَ الاستفادةُ من عُمقِ الخِطابِ القرآنيِّ ومَعرفةِ الأبعادِ والمَقاصِد، وإلا كانَت عباداتُهم عاداتٍ وحركاتٍ خاويةً من رُوحِها.

إنَّ الواقعَ الذي تَعيشُه الأمّةُ في ظلِّ العدوانِ الصهيونيِّ والأمريكيِّ والغربيِّ بشكلٍ عامٍّ، وحالةَ الخنوعِ التي تتخبَّطُ فيها الحكوماتُ العربيّةُ والإسلاميّةُ، ليُثبتان لنا يَوميًّا أنَّ المكانَ الجامعَ المختارَ من قِبلِ الخالقِ، ليكونَ قِبلةَ الأمّةِ، ما هو إلا مقدِّمةٌ رمزيّةٌ لا بدَّ منها، وهذا المكانُ رغم قداستِه العَظيمةِ ستَنتفي ريادتُه إذا لم يتحصَّنْ أبناءُ هذه الأمّةِ بمَضامينِ الكتابِ المُنزَلِ من قِبَلِ ربِّ البيتِ، الذي أمرَ المؤمنينَ بالتوجُّه إلى البيتِ الحَرامِ، وهو ما يُؤكِّدُ على أنَّ المكانَ وحدَه مَهما كان مُقدَّسًا

١ - محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي خواطر، ج٨ ص٤٩٣٨.

٢ - مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ح: ٢٥٨٦/٦٦، والمسند، هو الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ.

فإنَّه لا يمُكنُ أن يُورِّثَ المؤمنينَ القداسةَ إذا لم يَستلهموا القداسةَ فكرًا ليُترجموهُ عملاً وتضحيةً وإباءً وعزةً وجهادًا ضدَّ الأعداءِ والغُزاةِ، ووَحدةً تُبْذَلُ مِنْ أجلها الأموالُ والنُّفوسُ مهما تَبَاعَدَتْ أوطانُهم وتبايَنَتْ لُغاتُهم واختلفتْ مذاهبُهم... فوحدتُهم تتجلَّى مع كلِّ نَفَسٍ من الأنفاس الطّاهرةِ التي تتَّجهُ نحوَ الكعبةِ الطّاهرةِ؛ بحيثُ تَهُبُّ الأمَّةُ كلُّ الأُمَّةِ مُعْلِنَةً النَّفيرَ العامَّ متى داهمَ أدنى خطرٍ أيَّ مُؤمنٍ سواءٌ أكان قريبًا أم بَعيدًا.

ثالثًا: الأمن القوميُّ وأثرُه في صناعة الفكرِ الآمنِ من خلال قصّةِ (إبراهيمَ) عليه السلام

لئنْ أرشَدَ القرآنُ الكريمُ إلى قضيّةِ تَطهيرِ البَيتِ والمكانِ الذي يتوجَّهُ إليه أبناءُ الأمّةِ لتَنعكسَ طهارتُه وقداستُه على نفوسِهم مُنضوينَ تحتَ مظلّةِ أنواره التي تَجمعُهم على امتداد مساحة الأرضِ، فقد ركَّزَ على الهدفِ الأسمى من اختيارِ الكعبةِ المُشرَّفةِ فقال: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى**﴾ [البقرة: ١٢٥].

هذه الآيةُ تُحَدِّدُ للأمَّةِ الطَّريقَ الذي يَقودُها إلى الغايةِ الكُبرى التي يَسعى إليها عُقلاءُ البشرِ من دون استثناء، وذلك من خلال ثلاثةِ أمورٍ، هي: الجَعْليَّةُ المكانيّةُ، والثَّباتُ الذي يَنعكسُ على نفوسِهم، وشبكةُ الأمانِ العالميّةُ التي تَحفظُ وجودَهُم. أمّا الضَّمانةُ التي تَحفظُ ذلك كلَّه فهي انقيادُ المؤمنينَ كافّةً نحوَ الخطِّ والمَشروعِ الإسلاميِّ الذي خطَّه نبيُّ الله (إبراهيمُ) عليه السلام؛ ولذا كانَ لا بدَّ من الإضاءةِ على موضوعاتِ هذه الآيةِ ومُفرداتِها وصولاً إلى أهدافها.

جاءَ في معنى المَثابةِ أقوالٌ كثيرةٌ منها:

قال (ابنُ عبّاسٍ): يَعني: مَعاذًا ومَلجأً[١]. وقال (سعيدُ بنُ جُبير) و(مجاهدٌ) و(الضَّحاكُ): يَثوبونَ إليهِ من كلِّ جانبٍ ويَحجُّونَ ولا يَملُّونَ منه، فما من أحدٍ قصدَه إلا وهو يتمنَّى العَودَ إليهِ[٢].

١ - أحمد بن محمد الثعلبي، تفسير التعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤، ص ٨٥.
٢ - أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤ ص٨٥.

وقالَ (ابنُ زَيدٍ): يَثُوبُونَ إلَيهِ مِنَ البُلدانِ كُلِّها ويأتُونَهُ[١] .

وقال (ابنُ أبي لُبابةَ): لا يَنصَرِفُ عَنهُ مُنصَرِفٌ، وهوَ يَرى أنَّهُ قَد قَضَى مِنهُ وَطَرًا [٢] .

وقال (قتادةُ) و(عِكرمةُ): مَجمَعًا[٣] .

وجَعْلُهُ مثابةً أي: مَرجِعًا؛ والمَثابُ والمَثابةُ واحدٌ كالمَقامِ والمَقامةِ[٤].

والمَثابةُ: المَوضعُ الذي يَثوبُ إليهِ النّاسُ. أي: مُجتَمَعًا بعدَ التفرُّقِ[٥].

والمَثابةُ: مَحلُّ عَودٍ[٦]؛ أي: جعلَه مَعادًا لهم، يَعودونَ إليهِ مرّةً بعدَ مرّةٍ[٧].

والمَثابةُ من الثَّوب، أي: عَودةِ الشَّيءِ إلى حالتِه الأُولى. ولَمّا كانَتِ الكعبةُ مَركزًا يتَّجهُ إليهِ المُوحِّدونَ للحجِّ كلَّ عامٍ، فهي محلٌّ لعودةٍ جِسميّةٍ ورُوحيّةٍ إلى التَّوحيدِ والفِطرةِ الأُولى، ومن هنا كانَت مَثابةً[٨].

وكلمةُ «مَثابةً» تتضمَّنُ معنى الرّاحةِ والاستقرارِ؛ لأنَّ بيتَ الإنسانِ - وهو محلُّ عَودتِه الدّائمُ - مكانٌ للرّاحةِ والاستقرارِ، وهذا المَعنى تُؤكِّدُه كلمةُ «أَمْنًا» التي تَلي كلمةَ «مَثابةً» في الآيةِ. وكلمةُ «لِلنَّاسِ» تُوضِّحُ أنَّه مَلجأٌ عامٌّ لكلِّ العالَمينَ، ولكلِّ الشُّعوبِ المَحرومةِ[٩].

من خلالِ أقوالِ المُفسِّرينَ، التي استعرضناها، وما تَحمِلُه كلمةُ «مثابة» في هذا السِّياقِ القرآنيِّ،

١ - إسماعيل بن عمر (ابن كثير)، تفسير القرآن العظيم، ج١ ص٢٩٠.
٢ - إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص ٢٩٠.
٣ - أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤ ص ٨٥.
٤ - أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤، ص ٨٥.
٥ - محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج١، ص ٣٨٤.
٦ - محمد محسن الفيض الكاشاني، التفسير الآصفى، ج١، ص ٧٦.
٧ - نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، ج١، ص ٩١.
٨ - نَاصِر مَكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ الْمُنزَل، ج١ ص٣٧٧.
٩ - نَاصِر مَكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ الْمُنزَل، ج١ ص٣٧٧.

يَتبيَّنُ لنا أنَّ لاختيار هذه المُفردةِ أبعادًا كثيرةً تَحملُها حَملاً مُعجزًا متى تأمَّلْنا سياقَها مُتدبِّرينَ، قَصْدَ الوصولِ إلى مَعانيها العَميقة.

فإذا كانَ البيتُ مَعاذًا ومَلجأً يَلجأُ إليه الخائفونَ، أو مَوئلاً يَقصِدُه الحاجُّونَ فيَثوبونَ إليه من كلِّ جانبٍ، يَطوفونَ ويتعبَّدونَ ولا يَملُّونَ منه، بحيث لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ مُنْصَرِفٌ على مدار السّاعة، أو مَجمعًا ومَرجعًا ومَعادًا يَجتمعونَ فيه بعدَ التفرُّق... فإنَّ اللهَ -تعالى- جعلَ كعبتَه مَحلاً لعَودة جسميّة ورُوحيّة إلى التَّوحيدِ والفطرة الأُولى التي فطرَ اللهُ -تعالى- النّاسَ عليها؛ على أنَّ هذه المَثابةَ تتضمَّنُ مَعنى الرّاحةِ والاستقرارِ لكلِّ المَحرومينَ في العالَم.

من خلال هذه المَعاني نَستطيعُ التَّحليقَ في أبعاد الآيات التي تُؤكِّدُ أنَّ اللهَ -تعالى- هو الذي جعلَ بيتَه مَلاذًا جسميًّا ورُوحيًّا تَجتمعُ عليه العقولُ والقلوبُ والأرواحُ، وتتوحَّدُ مَهما تباعدَتْ جاهدةً في سبيل تأمين الرّاحة والاستقرار والأمن الذي هو مَطلبُ كلِّ إنسان على وجه الأرض؛ وإذا تحقَّقَ الأمنُ بكلِّ أبعاده الجسمانيّة والرُّوحيّة والنَّفسيّة والمَعيشيّة والاقتصاديّة في البلاد أثمرَ أرضيّةً قادرةً على استلهام الفكر الآمن من مَنهج نبيِّ الله (إبراهيمَ)، ليتَّخذَ المُؤمنونَ من المَقام الذي وقفَ فيه (إبراهيمُ) - مُمتَثلاً أمرَ ربِّه - مَكانًا للصَّلاة التي هي صلةٌ بينَ العبد وربِّه؛ وهذا يَعني أنَّ العقلَ يكونُ مُستعدًّا لاستقبال الحقائقِ والعَقائدِ الصَّحيحةِ والأفكارِ البنّاءةِ متى نَعِمَ ببَلَدٍ آمنٍ مُسْتَقِرٍّ تَسودُه العَدالةُ.

رابعًا: الدَّعوةُ إلى تحقيق الأمن الفكريِّ عبوديَّةً وتضحيةً وتَعقُّلا

عندَ مُطالعةِ السِّيرةِ الإبراهيميّةِ في القرآن الكريم يَتساءَلُ القارئُ:

ما الحِكمةُ من وُقوفِ المؤمنينَ موقفَ (إبراهيمَ) عليه السلام ومَقامَه مُتَّخذينَ منه مُصلًّى؟!

ولماذا يَقفونَ موقفَه دونَ مَوقفِ غيرِه من الأنبياءِ؟

أولًا: عندَ التبصُّرِ بهذه القضيّة بغيةَ استلهامِ الحِكمةِ من اختيارِ الحقِّ للشَّخصيّةِ المُقدَّسةِ وللمكانِ

المُقدَّس، سنقعُ لا محالةَ على حِكَمٍ جَليلةٍ من الهدفِ الحَقيقيِّ الأسمى لهذا الاختيار، ولئنْ شرعْنا في اقتفاءِ أثرِ هذه الشَّخصيّةِ المُباركةِ فإنَّنا سنَجدُ أنَّ نبيَّ اللهِ (إبراهيمَ) عليه السلام هو أبو الأنبياءِ، ومن ذُرِّيته النبيُّ المَوعودُ الذي تُختَمُ به الرِّسالاتُ، فعندَ (إبراهيمَ) عليه السلام اجتمعَت النُّبوّاتُ، ومنه تسلسَلَتْ حاملةً فكرًا واحدًا لا يتغيرُّ ولا يَتبدَّلُ مَهما تعاقبَ الأنبياءُ وتباعدَتِ المَواطنُ التي تكونُ مَهدًا لرسالاتِهم.

هذا الفكرُ عبرَّ عنه (إبراهيمُ) و(إسماعيلُ) عليهما السلام ساعةَ عَملا على رفعِ قواعدِ الكعبةِ بقَصدِ رفعِ مُستوى العقلِ البشريِّ فكريًّا على أُسٍّ عقديٍّ ثابتٍ لا يَتزعزَعُ، يَبدأُ بالتوجُّهِ الكاملِ لله تعالى، وبالتَّذلُّلِ التامِّ لعَظمته، وبالوقوفِ على أعتابِ بيتِه الحرامِ، ومن أجلِ ذلك كان دعاؤُهما الذي رافقَ رفعَ البيتِ ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٨].

على أنَّ قمَّةَ التَّذَلُّلِ والانقيادِ والعبوديّةِ للحقِّ سبحانَه، كلَّ هذه العناوينِ، ما كانَ أبو الأنبياءِ ليَقصدَ توقُّفَها عندَه ويَحتكرَ أثرَها من دونِ أن تكونَ مَعلَمَ هدايةٍ يَلجأ إلى كنفِها كلُّ إنسانٍ يَعيشُ على وجهِ المَعمورةِ إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، ولذا كان الإسلامُ هو الجامعَ المُشتركَ بينَ كلِّ الأنبياءِ السّابقينَ له والآتينَ بعدَه، ومن أجلِ ذلكَ كان التأكيدُ على الإسلامِ عَقيدةً وفِكرًا ومُمارسةً ودينًا لا يَقبلُ أبو الأنبياءِ باستبدالِ غيرِه به تحتَ أيِّ ظرفٍ من الظُّروف، وفي أيِّ زمنٍ من الأزمنة، وتحتَ أيِّ شعارٍ من الشِّعاراتِ التي يُمكنُ أن يَرفعَها أعداءُ الأنبياءِ مُتَّخذينَ من اسمِ «إبراهيمَ عليه السلام» والإبراهيميّةِ ستارًا أَبَى اللهُ إلا أن يَفضحَهُم من قبلِ أن يَستغلُّوهُ على لسانِ نبيِّه الكريم، فها هو صوتُه وصوتُ وَلده (إسماعيلَ) عليه السلام يُتبعانِ الدُّعاءَ الأوَّلَ بنداءٍ ثانٍ قائلَيْنِ: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة:١٢٨ - ١٢٩].

واستجابَ الحقُّ دعاءَ هذَين النَّبيَّينِ الكريمَين؛ إذ بعثَ -سبحانه- من ذرِّيتهما نبيَّ آخرِ الزَّمان، يَتلو على النّاسِ آياتِ الله -تعالى-، ويُعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ ويُزكِّيهم.. وفي ذلك يقولُ (النبيُّ الأكرمُ) صلى الله عليه وسلم: «إنِّي عندَ اللهِ مَكتوبٌ بخاتَمِ النَّبيِّينَ، وإنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ في طينتِه، وسأُخبرُكُم بأوَّلِ ذلك: دَعوةُ أبي إبراهيمَ،

وبِشارةُ عيسى، ورُؤيا أمِّي الَّتي رأَتْ حينَ وضَعَتْني أنَّه خرَجَ منها نورٌ أضاءَتْ لها منهُ قصورُ الشَّامِ»[1].

ثانيًا: إنَّ اختيارَ الحقِّ لأبي الأنبياءِ هو اختيارٌ يُدلِّلُ على عَظيمِ حكمةِ الخالقِ الحَكيمِ الخَبيرِ سبحانه، فسِيرةُ (إبراهيمَ) مدرسةٌ عظيمةٌ للسّالكينَ طريقَ العَقلِ والنُّورِ، المُستسلمينَ لقوّةِ الله -تعالى- ولدِينه ولعَظمته؛ سِيرةٌ مُفعمةٌ بكلِّ أنواعِ الصَّبرِ والتَّحدِّياتِ والوقوفِ بوجهِ قوى الظُّلمِ والظَّلامِ منذُ نشأته داعيًا إلى الإسلامِ - دينِ الله -تعالى- مُكسِّرًا الصَّنميّاتِ البَشريّةَ والحَجريّةَ، المادِّيةَ والمَعنويّةَ في كلِّ أبعادِها، مؤكِّدًا على الاستسلامِ المُطلَقِ للرَّبِّ الواحدِ المُستحِقِّ للعُبوديّةِ، غيرَ آبهٍ بعاداتِ المُجتمعِ وباعتقاداتِه المُتوارَثةِ، مُستعدًّا لِلتَّضحيةِ بنفسِه ورُوحِه في سبيلِ هدايةِ الخَلقِ الذين أبَوا إلا أن يُعَطِّلوا عقولَهم ويَنتقمُوا ممَّن أرادَ خيرَهم: **﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾** [الأنبياء: ٦٨ - ٦٩].

لقد رفضَ (إبراهيمُ) عليه السلام، وهو لا يزالُ فَتيًّا، أن يُضحِّيَ بالفكرِ الذي يَضمَنُ أمنَ العبادِ، ويُحافظُ على وجودِهم وحقوقِهم وكراماتِهم ومصالحِهم، مُقَوِّمًا مَسيرتَهم التي تَقودُهم إلى سعادةِ الدّارَينِ، حتى لو أزهَقُوا رُوحَه بجَهلِهم وضَلالِهم المُتوارَثِ.

وكما وقفَ في وجهِ قومِه فَتيًّا، وقفَ مُعَلِّمًا ومُوجِّهًا بحكمةٍ مُتناهيةٍ أقوامًا يَعبدونَ آلهةً مُتعدِّدةً، منهم مَن يَعبدُ النُّجومَ، ومنهم مَن يَعبُدُ القمرَ، ومنهم مَن يَعبدُ الشَّمسَ، يُحاجُّهُم بالفكرِ مُقدِّمًا الأدلّةَ والبَراهينَ على وحدانيّةِ الله تعالى، الذي لا نظيرَ له ولا شبيهَ ولا مَثيلَ، وفي ذلك يقول -تعالى-: **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾** [الأنعام:٨٣].

فمَن هو (إبراهيمُ) إذنْ؟

إنَّه وارثُ الأنبياءِ، وإمامُ مَن آمنوا بالله -تعالى- إيمانًا لا تَشوبُه شائبةُ شركٍ أو ظُلمٍ أو عُدوانٍ؛ إذ كانوا أئمّةَ الفِكرِ النَّقيِّ الصافي الذي يُحقِّقُ أمنَ البشريّةِ منذُ بداياتِها إلى نهايتِها **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ**

١ - محمد بن عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص ٦٥٦، ح ٤١٧٤. وقال عنه: صحيح الإسناد.

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ثالثًا: لقد تجلَّت الحكمةُ الإبراهيميّةُ في تَحفيزِ العُقولِ الضّالّة أو المُضلَّلة، وذلك من خلال حواراته مع بني قومه منذُ نشأته؛ حيثُ كسرَ أصنامًا حجريّةً يُقدِّسُها مجتمعٌ يَعتقدُ أبناؤُه أنَّهم سائرونَ في طريقٍ صحيحٍ قَويمٍ، أمّا دليلُهم على صحّةِ عبادتِهم للأصنامِ فهو أنَّهم وجدوا آباءَهُم عابدينَ راكعينَ ساجدينَ لها.

وما يَعجبُ له الإنسانُ أن يَقِفَ (إبراهيمُ) وحدَه مُواجهًا أمّةَ الكفرِ التي توارثَتْ عبادةَ الأصنامِ، مُقَلِّدَةً مَنْ سبقَها تقليدًا أعمى يمَنعُها من التَّفكيرِ، ويَسيرُ بها في طرقٍ مُظلمةٍ تُعَطِّلُ الآلةَ العاقلةَ التي بها كرامةُ الإنسانِ ورفعتُه وسعادتُه وأمنُه، فكان (إبراهيمُ) في صمودِه وفكرِه وثَباته وعدمِ تَنازُلِه عن عَقيدته ووقوفِه وحدَه أُمَّةً يَقِفُ في وَجْهِ أمّةٍ، ولم تمَنعْهُ القوى المُتجبِّرةُ حولَه من كسرِ العاداتِ والتَّقليدِ الأعمى القائمِ على مُجاراةِ المُتوارَثِ من دونِ إعمالِ فِكرٍ.

وعندَما سألَه قومُه عمَّن أهانَ أصنامَهم، ما كان منه إلا أن أشارَ إلى كبيرِ الأصنامِ، مُشدِّدًا على ضرورةِ استنطاقِها لتُخبرَهُم بالحَقيقة. ﴿**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾** [الأنبياء: ٦٣ - ٦٤ – ٦٥ - ٦٦].

هذا الحوارُ حملَهم على الاعترافِ – في قرارةِ نفوسِهم - بالحقيقةِ التي لا يَختلفُ عليها مُفكِّران اثنان، والقاضيةِ بأنَّ الأصنامَ التي يَعبدونَها لا تَنطِقُ ولا تَنفعُ ولا تضرُّ، فتنبَّهوا من غَفلتِهم، وإذا بالحجّةِ التي لهم باتَت عليهم، ليُعاودُوا الدِّفاعَ عن أصنامِهم مُجدَّدًا مُحتجِّينَ على فعلِ (إبراهيمَ) بأنَّه كان يَعلم أنَّ الأصنامَ لا تَنطقُ، لكنَّ الصّاعقةَ التي نزلَت على رؤوسِهم كانَت في جواب (إبراهيمَ) الذي دفعَهم إلى التعقُّل والتفكُّر بالدِّينِ الذي يَتَّبعونَه، حيثُ يَعبدونَ ما لا يَنطِقُ ولا يَعقِلُ...

وبنظرةٍ واعيةٍ نجدُ الحجّةَ العقليّةَ المَنطقيّةَ القويّةَ البيِّنةَ التي تَسلَّحَ بها (إبراهيمُ) في تَنبيهِ قومِه وتقويمِ مَسيرتِهم وتَصحيحِ أفكارِهم وعَقائدِهم إنَّما أرادَ من خلالها أن يُرشِدَهُم إلى الأمنِ الفكريِّ القادرِ على المُواجهةِ والتحدِّي والصُّمودِ، وبذلك يُورِّثَهم أمنَ الدّارَينِ وسعادتَهما.

خاتمة

أضاءَ هذا البحثُ على منهج الأنبياءِ الإنسانيِّ في القرآن، من خلال إطلالة سريعة على منهجِ نبيِّ الله (إبراهيمَ) ﷺ في تعامُله مع الخَلق والخالق، وما قصّةُ (إبراهيمَ) ﷺ في القرآن إلا تلكَ التي تُؤكِّدُ على أنَّ اللهَ تعالى قد جعلَ الأمنَ ركيزةً من أعظمِ الرَّكائز التي تَقومُ عليها المُجتمعاتُ الإنسانيّةُ، وتتطلَّعُ إليها البشريّةُ عبرَ العصورِ والدُّهور؛ إذ هو الطَّريقُ الذي تَسلُكُه المُجتمعاتُ الطّامحةُ إلى التقدُّمِ والازدهارِ والرُّقيِّ في مجالاتِ الحياةِ بأجمعها. وإذا كانَت الدُّوَلُ المُتقدِّمةُ اليومَ تُولي عنايةً كبيرةً بالأمنِ، فتعملُ على توفيره لأبنائها من خلالِ التَّعاوُنِ الأمنيِّ والمُعاهداتِ والاتِّفاقيّاتِ التي تُبرِمُها الحكوماتُ فيما بينَها، فإنَّ هذه الدُّوَلَ رغمَ علوِّ كعبها في مُعظَمِ المَجالاتِ العلميّةِ والأمنيّةِ والاقتصاديّةِ والتُّكنولوجيّةِ المُعقَّدة لكنّها عملَت على تجريدِ الإنسانِ من قِيَمِه الإنسانيّةِ والخُلُقيّةِ، ثم استهدفَت القِيَمَ الدِّينيّةَ - بحُجّةِ تعارُضِ الدِّينِ معَ العلمِ والتقدُّمِ.. - والتي تُفرِغُ الإنسانَ من حقيقتِه وجوهرِه مُحاربةً فِكرَه، ومُحوِّلةً المُجتمعاتِ إلى دُمًى يَتلاعبُ بها الأشرارُ!

هذا السُّلوكُ القذرُ الذي يتعاملُ معَ الإنسانِ تَعامُلَه مع رَقمٍ من الأرقامِ أبعدَ الأمنَ الفكريَّ عن قائمةِ اهتماماتِ الدُّولِ التي صنعَت من البشرِ آلةً تَقومُ باستخدامها في عمليّاتِ تطويرِ الصِّناعاتِ المُتقدِّمةِ والسِّباقِ في المَجالاتِ الاقتصاديّةِ والأمنيّةِ، أو حقلَ تجاربٍ تُساعِدُ على تطويرِ آلاتِ التسلُّحِ والدَّمارِ الشّاملِ...

أمّا الإسلامُ فقد أرشدَ النّاسَ إلى أنَّ الأمنَ الحقيقيَّ، الذي يضمنُ سلامةَ البشرِ ويُحافظُ على أرواحِهم ووجودِهم ومُجتمعاتِهم، ويُشرِّعُ الشَّرائعَ الكفيلةَ بحَلِّ خلافاتهم وفاقًا لمنهجِ العَدالةِ والأمانِ الضّامنِ لاستقرارهم.. هو الحاضنةُ التي لا بدَّ منها لصناعةِ الأمنِ الفكريِّ الذي يتطوَّرُ ويتقدَّمُ تقدُّمًا حَثيثًا وفاقًا لخطٍّ ربّانيٍّ قائمٍ على التَّوازنِ التّامِّ بينَ الأمنِ الظّاهريِّ والأمنِ الباطنيّ.

فالأمنُ الظّاهريُّ من المُمكنِ أن يَسودَ بالظُّلمِ والقَهرِ والتَّخويفِ والاستعبادِ، وبالقوانينِ التي تُحاسِبُ المُخطِئَ أعنفَ حسابٍ، وتُعاقِبُ الرّافضَ للظُّلمِ والثّائرَ عليه أشدَّ عقابٍ.

أمّا الأمنُ الباطنيُّ فهو ما لا يتحقَّقُ إلا في أُطرٍ قويمةٍ تَهتمُّ بالإنسانِ ظاهرًا وباطنًا، فتُحصِّنُه

تَحصينًا نفسيًّا وإيمانيًّا وسُلوكيًّا وعَقديًّا وعلميًّا؛ بحيثُ تجتمعُ مُكوِّناتُه على بناء مَنظومة فكريّة آمنة يَلتزمُ بها أهلُ الأرضِ قاطبةً، التزامًا لا يَتزعزَعُ لو تَزعزَعَتِ الجبالُ. وما التَّوجُّهُ إلى الكعبة المُشرَّفة أثناءَ الصَّلواتِ إلا بعضٌ من هذا الأمن النابع من السُّلوكِ الفرديِّ والمُجتمعيِّ والإنسانيِّ العالميِّ، الذي يَتشاركُ ويَجتمعُ على تحقُّقه أهلُ الإسلامِ في كلِّ بقاعِ الدُّنيا. لذا ركَّزَ القرآنُ على المنظوماتِ الأمنيّة الكفيلة بصناعة بيئة آمنة تَحتضنُ أمنَ الإنسانِ الفكريِّ لئلا يَؤول المجتمعُ عُرضةً لتَجاذبِ المَوتورينَ من الكَذّابينَ والأفّاكينَ والمُنافقينَ والمُنحرفينَ.

نبيُّ اللهِ (إبراهيمُ) عليه السلام الذي تلاقَت عندَه الرِّسالاتُ، واستقرَّت لتَنبعثَ من جديد، انبعاثةً يكونُ هو أصلَها، وأبًا لحامليها من أنبياءِ بَني إسرائيلَ بعدَه، هو نفسُه النبيُّ الذي اختارَ اللهُ من ذريّته (نبيَّ الإسلامِ الخاتَم)، الذي تسلسَلَ من ذريّة (إسماعيلَ) المُطهَّرة، وخرجَ من مكّةَ عندَ الكعبة الآمنة نفسها التي رفعَ بنيانَها النَّبيَّان المُباركان لتتحقَّقَ دعوتُهما: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٩]، وهكذا كان (محمدٌ رسولُ الله) ﷺ آخرَ الأنبياءِ الذينَ بعثَهُم اللهُ -تعالى- ليُعلِّمَ النّاسَ الكتابَ والحكمةَ، ويُزكِّيهم فيَطوي بذلكَ أزمنةَ الجَهالاتِ، ويُجدِّدَ الرِّسالاتِ، ويَؤولَ رائدَ الحقِّ والعَدلِ والعنوانَ الأمثلَ للأمنِ الدّائمِ ومَصدره القائمِ إلى قيامِ السّاعة، مَهما افتقدَت الإنسانيّةُ أمنَها وسَلامَها في كلِّ زمانٍ، بسببِ تفشّي الظُّلمِ واستحكامِ قبضةِ الظُّلّامِ، واستسلامِ النّاسِ لغَيرِ اللهِ ودِينِه وشَريعته؛ فأكَّدَ عبرَ تَوجيهاته وتَشريعاته وتَضحياته وثَباته على أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الذي ارتضاهُ اللهُ لأنبيائه الذين أرسلَهم للبشرِ بدينٍ واحدٍ لا ظلمَ معَه ولا عُدوانَ ولا نفاقَ ولا غشَّ ولا خداعَ ولا مُراوغةَ ولا تردُّدَ ولا تَراجعَ عن المَبادئِ والقواعدِ والأصولِ والفروعِ والقرآنِ الحَكيم، كتابِ الله الذي خطَّ قانونًا عجزتِ البشريّةُ عن مجاراته، وستَبقى عاجزةً مهما بلغَت قُوًى واتَّسَعَت مدارِكَ وتقدَّمَتْ عُلومًا.

فمَتى ستَسعى الأمّةُ إلى الاقتداءِ بمَنهجِ أبي الأنبياءِ، الذي يُحقِّقُ الأمنَ بكلِّ أبعاده؟ ومَتى ستَعرفُ أنَّ الإسلامَ هو الحلُّ والمَخرجُ الوَحيدُ من الصِّراعاتِ والحروبِ التي تَشنُّها قوى الاستبدادِ على أوطانها؟ وهل ستُدركُ أنَّ وحدتَها الإسلاميّةَ والفكريّةَ هي الضَّمانةُ الكبرى في ميادينِ المُواجهةِ والصِّراعِ مع مَحاورِ الشرِّ التي لا تَملُّ ولا تكلُّ؟

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- أحمد ابن فارس، مجمل اللغة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢-١٩٨٦م.
- أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١-٢٠٠٢م.
- إسماعيل بن عمر (ابن كثير)، تفسير القرآن العظيم، المحرر: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢-١٩٩٩م.
- محمد الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ. الحديث للطباعة والنشر، ط٢- ١٤٢٥هـ.
- محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن. موقع الجامعة الإسلامية، (بلا تاريخ).
- محمد بن عبد الله (الحاكم النيسابوري)، المستدرك على الصحيحين تحرير: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١-١٩٩٠م.
- محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط-١٤١٧هـ.
- محمد متولي الشعراوي، تفسير الخواطر، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ط-١٩٩٧م.
- محمد محسن (الفيض الكاشاني)، التفسير الآصفى، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط١-١٤١٨هـ.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (بلا تاريخ).
- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل. دار الكتب الإسلامية، إيران، (بلا تاريخ).
- نصر بن محمد السمرقندي، تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، دار الكتب العلمية، بيروت، (بلا تاريخ).